مجلة كلية

الدعوة الإسلامية

مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة

العدد السابع
1990 م

- واقع البحث العلمي ومشكلاته
- قصة دخول الإسلام إلى رواندا
- صورة المسيحية في دراسات غربية
- مفاهيم أساسية في فكر مالك بن نبي
- التراث الإسلامي والاستشراق

الأدارسة

بقلم الدكتور: أمين توفيق الطيبي

أول دولة إسلامية قامت في المغرب الأقصى على يد إدريس الأول (الأكبر) عام 172هـ/ 788م وعاشت قرابة قرنين متخذةً مدينة فاس عاصمةً لها. وللأدارسة الفضلُ في نشر الدين الإسلامي واللغة العربية بين قبائل المغرب الأقصى، كما أن ادريس الأول وابنه ادريس الثاني يُعتبران المؤسِّسيْن لمدينة فاس التي كانت ـ وما تزال ـ مركزَ اشعاعٍ للحضارة العربية الإسلامية في المغرب الأقصى، وإليها وفدتْ ـ بعد اختطاطها ـ جموعٌ عربيةٌ من الأندلس وافريقيا عملتْ على النهوض بالمدينة المُحْدثة اقتصادياً وعلمياً. وقد بلغت دولةُ الأدارسة أقصى اتساعها في حدود عام 245هـ/860م، ثم دبَّ فيها الضعفُ نتيجةً للمنازعة بين أبناء الأسرة، ولوقوعها ضحيةً للصراع الذي قام في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي بين دولتين كبيرتين، هما دولةُ العُبَيْديين الفاطميين، ودولةُ الأمويين في الأندلس، وكان زوالُها في عام 375هـ/985م على يد، المنصور محمد بن أبي عامر حاجب خليفة قرطبة الأموي هشام الثاني.

تأسستْ دولة الأدارسة الحَسنيين على يد إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، الذي أفلتَ من وقعة العباسيين بالطالبيين بفخ قرب مكة سنة 169هـ/786م، وتوجَّه ـ برفقة مولاه الوفي راشد ـ إلى المغرب واستقر آخر الأمر في وليلي (Volubulis) قاعدة جبل زرهون، (وتُعرف عند المغاربة باسم قصر فرعون)، عند قبيلة أوْرُوبة حيث بويع إماماً للقبيلة والقبائل المجاورة، وغزا بهم بلاد تامسنا وتادلا، ونازلَ مدينة تلمسان «باب افريقيا»

ودخلها صلحاً، وبنى مسجدها. ويُذكر بأن الإمام إدريس شرع عندئذ في بناء مدينة فاس على الضفة اليمنى لوادي فاس. وكانت وفاته في وليلي في مطلع عام 175هـ/791م مسموماً على ما قيل - على يد سليمان بن جرير الجزري المعروف بالشَّماخ بإيعازٍ من الخليفة العباسي هارون الرشيد.

وُلد إدريس الثاني (الأصغر/الأزهر) بعد وفاة أبيه بشهرين، وأُمه كنزة من قبيلة نفرة، فتولّى الوصايةَ على الطفل وتربيته مولى أبيه راشد الذي اغتيل عام 186هـ/808م بتحريضٍ من امير افريقيا ابراهيم بن الأغلب. ولما شبَّ إدريس تصالح مع الأمير الأغلبي، ورحبَّ بِمَقْدم عدد وافر من أنصاره العرب قدموا من افريقيا والأندلس، واستوزر عُمَيرَ بن مُصعب الأزدي أحدَ فرسان العرب وسادتهم.

ولما ضاقت وليلى بمن فيها، وأراد الأمير الاستقلالَ عن نفوذ اوروبة، انتقل عام 192هـ/814م إلى الضفة اليمنى لوادي فاس حيث كان والده قد أقام حصناً أصبح نواةً لمدينة فاس، وانتقل في العام التالي إلى الضفة اليسرى حيث اختطَّ ربضاً عُرف فيما بعد بعُدوة القرويين. ولما وصل إلى الحاضرة الجديدة عام 202هـ/818م عددٌ كبيرٌ من أهل الربض بقرطبة ممّن أجلاهم أميرُ قرطبة الحَكم الأول، أنزلهم الإمامُ إدريس في الضفة اليمنى لوادي فاس، فعُرفت الناحيةُ باسم عُدوة الأندلس. ولإدريس الثاني الفضلُ في تنظيم أول حكومة مركزية في المغرب.

غزا إدريس الثاني بلادَ المصامدة وجنوبَ المغرب عام 197هـ، واستولى على مدينة نفيس واغمات بسفح الأطلس الكبير، وبعد حروب طويلة مع قبائل برغواطة المارقة توفي إدريس الثاني بعد حكمٍ دام 22 سنة، ودُفن بجوار والده في وليلي.

دولة الأدارسة بعد إدريس الثاني

خلَّف إدريسُ الثاني اثنيْ عشر ولداً، وتلاه في الإمامة أكبرُهم محمد الذي

أشارتْ عليه جدَّتُه كَنْزة بتقسيم المملكة بين اخوته، بينما أقام هو بمدينة فاس. وقد نتج عن هذا التقسيم منازعات وحروب بين الإخوة.

وخَلَف محمداً بعد وفاته سنة 221هـ/836م ابنُه علي الذي حكم فاس ثلاثَ عشرةَ سنة، ونجح في تنظيم شؤون البلاد، وإشاعة الأمن والاستقرار فيها. ثم خَلَفه في الحكم أخوه يحيى، وفي عهده وصل للاستقرار في فاس عرب نازحون من الأندلس وافريقيا، فاتسعت المدينةُ وشُيِّد جامع القرويين وجامع الأندلس. وخلفه في الحكم ابنُه يحيى الثاني الذي أساء السيرة، فأطيح به، وقامت فتن وحروب أهلية إلى أواخر القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي تزامنتْ مع ظهور العُبَيْديين الفاطميين في افريقيا، الذين هزم قائدُهم مصالة بن حبوس سنة 305هـ/917م يحيى الرابع وحمله على مبايعة عُبَيْد الله الشيعي. واحتفظ يحيى لفترةٍ بولاية فاس، بينما ولي بقية البلاد موسى بن أبي العافية زعيمُ مكناسة الذي سُرعان ما تملَّك فاس وأجلى الأدارسة، فاعتصموا بحصن حجر النسر (قرب البصرة) جنوبي طنجة عام 317هـ/929م، وخلعوا ولاءهم للعُبَيْديين بتحريضٍ من خليفة قرطبة الأموي عبد الرحمن الثالث (الناصر لدين الله). وتمكَّن الأدارسةُ من تثبيت أقدامهم في منطقة الريف بشمال المغرب، واعترفوا بسيادة الأمويين تارةً وبسيادة الفاطميين تارة أخرى.

ولي الحسنُ بن كنون بعد انصراف أخيه إلى الغزو في الأندلس، ولم يزل الحسنُ مبايعاً للمروانيين إلى أن قدم جوهرُ الصقلي فبايع العُبَيْديين. فلما انصرف جوهر إلى افريقيا في آخر سنة 349هـ نكث الحسن بن كنون بيعةَ العُبَيْديين وعاد إلى بيعة المروانيين فتمسَّك بدعوة الناصر وولده الحكم المستنصر من بعده «خوفاً منهم لا محبَّةً فيهم لقرب بلاده منهم»، كما يقول ابن أبي زرع، إلى أن قدم بلقين بن زاوي بن زيري الصنهاجي من افريقية، فسارع الحسن بن كنون إلى نصرته. فحاربه الحكمُ المستنصر ـ على يد قائده غالب بن عبد الرحمن ـ وهزمه وحمله وأقرباءه إلى قرطبة سنة 363هـ/974م، ثم أُجلي عن الأندلس في العام التالي، فسار الحسن وبنو عمه إلى مصر حيث أكرمهم الخليفة الفاطمي نزار بن معد إلى سنة ٣٧٣هـ، حينما توجَّه الحسن إلى المغرب مع بلقين بن زاوي في

خلافة هشام الثاني، فجهَّز المنصور بن أبي عامر حملتين ضده، واستسلم الحسن بن كنون وقُتل في طريقه إلى قرطبة سنة 375هـ/985م. يقول صاحب (روض القرطاس): «فانقرضتْ أيامُ الأدارسة بالمغرب بموت الحسن بن كنون آخر ملوكهم. وكانت مدة ملكهم مائتي سنة وسنتين وخمسة أشهر. وكان عملُهم بالمغرب من السوس الأقصى إلى مدينة وهران، وقاعدة ملكهم مدينة فاس ثم البصرة. وكانوا يكابدون مملكتين عظيمتين وعملين كبيرين دولة العبيْديين بمصر وافريقية، ودولة بني أمية بالأندلس... فكان سلطانهم إذا امتد وقوي إلى مدينة تلمسان، وإذا اضطرب الحال عليهم وضعفوا لا يجاوز سلطانهم البصرة وأصيلاً وحجر النسر».

ومما يُذكر أن أحدَ الأدارسة ـ علي بن حمود ـ ولي خلافةَ قرطبة عام 407هـ في بداية فترة ملوك الطوائف، واحتفظ الحموديون بإمارات لهم في مالقة والجزيرة الخضراء إلى أن استولى عليهما عام 447هـ على التوالي باديسُ بن حبوس صاحب غرناطة، والمعتضدُ بن عباد صاحب اشبيلية.

وينتمي إلى الأدارسة الجغرافيُّ العربيُّ الكبير الشريفُ الإدريسي. ويذكر الرحالةُ ابنُ جبير القائدَ أبا القاسم بن حمود في جزيرة صقلية النورمانية ويصفه بانه «ممن توارثوا السيادةَ كابراً عن كابر».

في حين أن الأدارسة لم يستطيعوا توحيدَ كافة أراضي المغرب الأقصى، فإنهم حَبَوْه قاعدةَ الإسلام فاس. وفي عهد الأدارسة تمَّ تعريبُ احواز فاس وشمال المغرب. ولا شكَّ في أن الأدارسةَ بذلوا جهداً كبيراً في نشر الإسلام، كما أنهم مؤسسو التقليد الشريفي في المغرب، ولعب الأشراف الحسنيون أكثر من مرة دَوْراً مهماً في تاريخ البلاد. وفي المغرب اليوم كثير من الشرفاء الذين ينتسبون إلى الأدارسة.

المصادر والمراجع

المصادر

ابن حوقل، محمد: صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت (بدون تاريخ).

المقدسي، محمد: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ليدن 1906.

البكري، أبو عُبيْد عبد الله: المُغرب في ذكر بلاد المَغرب، باريس 1965.

ابن عِذارِي، أبو العباس أحمد: البيان المُغرب في أخبار الأندلس والمغرب، الجزء الأول، بيروت 1980.

ابن أبي زرع الفاسي، أبو العباس أحمد: الأنيس المُطرب بروض القرطاس، أبسالة 1846.

ابن الخطيب، لسان الدين: أعمال الأعلام، القسم الثالث، الدار البيضاء 1964.

ابن خلدون، عبد الرحمن: كتاب العِبَر، المجلد السادس، بيروت 1979.

ابن خلدون، يحيى: بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، الجزائر 1980.

ابن أبي دينار القيرواني، محمد: المؤنس في أخبار افريقيا وتونس، تونس 1967.

الوزان، الحسن: وصف افريقيا، الجزء الأول، الرباط 1980.

المراجع

ليفي ـ بروفنسال، إ: «تأسيس مدينة فاس»، في كتاب (الإسلام في المغرب ولأندلس) القاهرة 1956، ص 1-50.

لو طورنو، روجي: فاس قبل الحماية، بيروت 1986 (الجزء الأول).

تيراس، هنري: تاريخ المغرب (بالانكليزية)، الدار البيضاء 1952.

جوليان، شارل ـ اندري: تاريخ افريقيا الشمالية، تونس 1978.

العروي، عبد الله: تاريخ المغرب (بالانكليزية)، برينستون 1977.

لومبار، موريس: عصر الإسلام الذهبي (بالإنكليزية)، امستردام 1975.

التازي، عبد الهادي: «تاريخ بناء جامع القرويين»، صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، المجلد السادس، العدد 1-2، مدريد 1958.

دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة الثانية، بالإنكليزية)، المجلد الثالث، ليدن ـ لندن 1971. يُنظر تحت «الأدارسة»، ص 5-1037، وتحت «ادريس الأول»، ص 1031، وتحت «إدريس الثاني»، ص 1-1032.